كتاب

خلف قضبان الحياة

دار مُورفُو للنشر والتوزيع

المؤلف: ليلى أنعم

|إهداء|

إلى تلك الأرواح التي واجهت غاياتٍ بعيدة، وآهاتٍ دفينة، ومكدراتٍ أبت أن تزول...
إلى من عبروا منغصات الحياة، وتعثرت أقدامهم بين العثرات، لكنهم ظلوا واقفين، يُجاهدون للوصول إلى النور، رغم قسوة ووعورة الطرقات.
أقول لكم: لا تخشوا الظلمات، سيروا بكل قوة وثبات، اعبروا الطرقات بعزمٍ لا ينكسر، وبإيمانٍ لا يتراجع؛ فهذه الحياة وإن أثقلتها المشقات، تخبئ في نهاياتها ما يستحق الصبر والكفاح، تخبئ أجمل المسرات.
وفي هذا الكتاب، أُهديكم مرآةً تروي حكاياتٍ بدأت بالألم وانتهت بالأمل، علّها تكون زادًا لكل عابرٍ يبحث عن ضوءٍ وسط عتمة الظلمات.

المقدمة

خلف قضبان الحياة، هناك أرواح هَدّتِ القُيودُ قواها، وعيونٌ أطفأُ الظلامُ ضِياهَا، وقُلُوبٌ أخمَدَ الفُراقُ اتّقادَها، واستَنزَفَ اليَأسُ عِنادَهَا، إلا أنها لم تَزَلْ تُؤمِنُ بالفَرَج كما تؤمنُ بالفَجْرِ، وتَثِقُ في انبثاق اليسر بعد العسر، وتُدرك جيدًا أنه كما كان السجن أحبّ إلى نبي الله يوسف الصديق، فهو أحقُّ بكل قلبٍ رقيق، وكل شعور أنيق، وكل فكر طليق على مر العصور، وتعلم علم اليقين أن الحياة ليست سوى قضبان فروعٍ لسجونٍ عدة، وأنّ الدنيا برُمَّتِها ليست سوى سجن عام بصريح قول النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم: (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر).

وكما أن في القصاص حياة لأولي الألباب، فإنَّ في السجنِ حريةً لكُلِّ حليمٍ أوّاب، فهاهو الصديق يوسف عليه السلام بعد أن تآمر عليه إخوته وألقوه في سجن غيابة الجبّ، يأتيهِ الفرجُ من ربّهِ في صورةِ سيارةٍ أَسَرُّوهُ بِضَاعَة وما لبثوا أن ألقوه تارة أخرى في سجن العبودية، بعد أن شروه بثمن بخس دراهم معدودة، فَجَاءَه الفرج من رَبّه في صورة عزيز مصر الذي اشتراه، وقال لامرأته أكرمي مثواه، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا، إلا أنّها ما لبثت أن كادت له كيدًا، فألقاهُ مولاهُ في سجنِ الدولة وهو غلامٌ مملوكٌ، ليأتيه الفرج العظيم من ملك الملوك، وتأتي ثمرة الصبر فيَخرُج من ذلك السجن وهو عزيز مصر.

|مُلحق المقدمة|

وهاهو نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم وهو أتقى الناس وأنقاهم لربه، يصبح أسير سجن اليُتم منذ الوهلة الأولى بموت أبيه وهو لا يزال جنينًا في بطن أمه، ثم يضيق عليه سجن اليُتم أكثر بفقدانه لأمه وهو في السادسة من عمره، ثم لم يلبث طويلًا حتى ضاق عليه ذلك السجن أكثر، فبعد عامين فقط من فقدانه لحنان أمه آمنه، يفقد حنان جدّه وهو في عمر الثامنة، وما أن بعثه الله إلى الناس بشيرًا ونذيرًا، حتى وقع في سجن الأذى والظلم من قومه في مكة طوال ثلاث عشرة سنة، ووسط تلك الأجواء المبلدة بظلام الجهاهلية وظلمات الظلم، يدخل سجن الحزن بعد رحيل زوجته خديجة رضي الله عنها وهي التي لطالما واسته وآنسته، ووفاة عمه أبي طالب على الكفر، وهو الذي لطالما حماه وآزره، ثم اشتد عليه أذى قومه بعدها مُنوِعين أساليب أذاهم له بين ترغيب وترهيب، فتارة يؤذوه ليُثنُوه، أو يهدّدُوه ليُقيّدُوه، وتارة أخرى يقدموا له العروض المغرية ليتخلى عن دعوته فينقلبوا خاسرين، أو يمكروا به ليُثبتوه أو يقتلوه أو يُخرجوه، والله خير الماكرين، حتى وصل بهم الحقد إلى إتخاذ قرار يقضي باغتياله، فأذن له الله بالهجرة تاركًا خلفه أحب بقاع الأرض إلى قلبه، ليستقر به المقام في المدينة، إلا أنه لم يستقر له حال، حيثُ لَمْ يَسْلم يومًا مِن أذى المُنافقين وحَسَدِهِم، ومَكرِ اليهُودِ وحِقدِهِم، وحَربِ المُشرِكين وصَدِّهِم، ولكنه برغم تلك السجون والقيود والأغلال، والدورب المليئة بالأشواك والأوحال، ظلّ راسخًا رسوخ الجبال، سالكًا دروب النضال، يخوض غمار الأهوال، يبدد ظلام الجاهلية، ويدك معاقل الوثنية، فحطم الأصنام، وأرسى دعائم دولة الإسلام.

بين قيود الأمس وأصابع اليوم:
«صرخة المرأة اليمنية»

ما بين عتمة تقاليد بالية وأضواء حداثة زاحفة، تجد المرأة اليمنية نفسها عالقة في صراعٍ مريرٍ بين الماضي والحاضر، هي تلك الروح التي طالما أرادت التحليق، لكن أجنحتها أُثقلت بأعباء لم تخترها، وأحلامها سُجنت بين أسوار عاداتٍ تُقدّس القيد، وتقاليدٍ تُجرّم الحرية، وفي هذا العالم المزدوج، باتت تواجه تحدياً جديداً لم يكن يوماً في حسابها: الزحف الإلكتروني؛ فمنذ نعومة أظفارها، تُربّى المرأة اليمنية على الانصياع لتلك القوانين التي وُضعت باسم "الشرف" و"الأصالة"، قوانين تُقيد الفكر، وتُعيق الحلم، ومن جهة أخرى، يأتي العالم الرقمي ليُفتح أمامها آفاقاً رحبة، لكنه يحمل في طياته مفارقة قاسية؛ إذ لم يعد هذا الزحف التكنولوجي مُجرد وسيلة للتعلم أو التحرر، بل صار محكمة أخرى تُحاكمها بأدوات جديدة، حيث النقد الجارح والرقابة المفرطة تتسللان عبر كل شاشة، أوجاعٌ متراكمة حملتها هذه المرأة في قلبها، تنقلها بين جيلٍ وآخر، أوجاعٌ وُصفت يوماً بأنها قدر محتوم، لكنها في الحقيقة جرحٌ فاغر على امتداد الروح الحزينة، تتوالى عليها سهام المجتمع من جهة، وأصابع الاتهام الرقمية من جهة أخرى، وبين هذا وذاك، تُجبر على الصمت، على تقبل الظلم، وكأنها وُجدت فقط لتكون ساحة للصراعات الفكرية والاجتماعية،

وما بين نظرة تُحاكم ملابسها، وأخرى تُحلل كلماتها، وما بين قانون عائلي يُقيدها، وزحف إلكتروني يُشوه صورتها، تجد المرأة اليمنية نفسها وحيدة، تبحث عن مأوى يُشعرها بالأمان، كم من مرة بكت من نقدٍ جارح أو تعليقٍ لاذع؟

بين قيود الأمس وأصابع اليوم: «صرخة المرأة اليمنية»

مُلحق...

كم من مرة شعرت بأن الحياة أصبحت أضيق من أن تحتمل؟
ولكن هل هذا هو قدرها؟ هل كُتب عليها أن تُحاصر بين المطرقة والسندان، بين مقصلة التقاليد وسيوف التكنولوجيا؟ أم أن هناك أملًا يُمكن أن يُزهر في هذا الخراب؟

لن تتحقق النجاة إلا بإعادة النظر في هذا التوازن المفقود، لا بُد أن يعي المجتمع أن القيم الحقيقية لا تُبنى على القمع أو التحجيم، بل على الاحترام والاحتواء، على الحب والتقدير، لا بد أن يدرك العالم الإلكتروني أن الإنسانية لا تتجزأ، وأن الكلمة يمكن أن تُنقذ كما يمكن أن تقتل،

وفي النهاية، لن تكون هناك نهاية لهذا الوجع ما لم نبدأ رحلة إصلاحٍ شاملة، إصلاح يبدأ من داخل كل فرد، من طريقة رؤيته وتعامله؛ فالمرأة اليمنية ليست ساحة حربٍ للأفكار، ولا مشروعًا للتجارب الاجتماعية والحصار، هي إنسانة، تحتاج أن تُعامل بحب، باحترام، يجب أن تحيا بسلام، فرفقًا بقلوب النساء، فإن الجرح الذي تُحدثونه قد لا يُشفى بسهولة، ولكنه بالتأكيد يُترك أثرًا عميقًا، فلنكن نحن من يُضيء هذه الحياة بدلًا من أن نزيدها ظلمة.

«موتٌ على قيد الحياة»

وأما عن ليل غزة؛ فهو ليلٌ مثقل بالحزن، يمتد كسربالٍ من قطران، تطرق الدموع أبواب الصمت فيه، وتنهش الفواجع جلبابه الأسود بمخالب شظايا المتفجرات، وتتجول الآهات في أزقة الذكريات، ترثي الأحبة الذين غفوا تحت أنقاض سنوات من الألم والتيه والشتات، وفي شوارعها الضيقة ومزقات طرقها المتداخلة، تلتف الأحزان كأفاعي الغابات؛ لتنهش بأنيابها بقايا الفرح في قلوب كادت أن تنطفئ، وتمحو طيف حُلمٍ دُفن تحت ركام المنازل المدمرة، وكيف لا تُدفن تلك الأحلام في وطن لم يعرف السلام يومًا؟

رائحة البارود تملأ الأجواء، وتتسلل إلى الخيام المنطفئة فتستنشقه الأنفس الحائرة؛ لتُحاكي صوت الأمل وهو يُحتضر تحت وطأة القصف والدمار، وفي عُمق الظلام المطبق، تجتاحها عاصفة الحنين إلى الذين أنتشلتهم الحرب منهم دون وداعٍ، لأولئك الذين قضوا نحبهم تحت الأنقاض، وأولئك الذين هجروا الديار وتاهوا في رمال الصحاري بحثًا عن مأوى، تتحرك الأشباح بصمت حزين يجول أزقة الفؤاد ويُهيمن على الأرواح، لماذا تتركون أرواحنا هنا تُصارع وجع الحرب والظلم والدمار؟

«موتٌ على قيد الحياة»

مُلحق...

خذونا معكم؛ فعيشنا دون الأحبة موت على قيد الحياة، نحِنُّ كثيرًا لأرواحٍ غادرت دون وداع وما زالت بصماتها تلامس جدران المدينة المنكوبة، وتروي قصص العذاب التي لا تنتهي والآلام التي لا تهدأ، والظلمات التي لا تنجلي، هُناك حيث الأمهات الثكالى يندبن فلذات أكبادهن، وحيث الأطفال يختبؤون من رعب الليالي، تتساقط الأحلام كأوراق الخريف، محترقة، منهارة، وتعيش في ذُلّ وهوان، غزة العزة مدينة الجراح التي لا تلتئم، والأحلام التي لا تكتمل، إلا أنها تظل شامخة عزيزة تُصارع الطغيان في أبشع صوَرِه، وتقف شامخة برغم الانكسار، تحمل في صمودها قصة شعب يأبى الانحناء إلا لرب الأرض والسماء، وفي كل زاوية من زواياها، تجدُ روحًا متمسكة بالأمل، تحدق في الأفق البعيد باحثةً عن بريق النور في عتمة المصير، وتصنع من الألم أملًا.

«ثمن الآيسكريم»

في إحدى الليالِ الطوال، هُناك حيث يسود الظلام، ويحجب النور المكان، كان هُناك طِفلةٌ صغيرة تعيش بالأركان، تعزف على أوتار الطفولة أعذب الأنغام، طِفلةٌ أغدغ عليها والدها بالحب والدلال، كُنتُ أنا تِلكَ الطفلة التي لا تبرح حتى تبلغ غايتها والمرام، طفلةٌ مدللة لا تعرف من الحياة إلا ما تمنحه إياها عيون والدها المرهقة، تلك العيون التي لم تعرف كيف ترفض لي طلبًا، أو ترد لي مُرادًا، أو تكسر لي غاية؛ فطلبت آيسكريم، ولم أكن أعلم بأني سأصبح بعد طلبي هذا شخصًا سقيم، تلك الرغبة الصغيرة التي بدت لي حينها كل شيء، وأصبحت للعالم أكبر خطأ ارتكبته طفولة بغير وعيٍّ، وأصبحت أنا بعدها دون شيء،

عاد أبي بعد منتصف الليل، جسده يحمل أعباء يومٍ ثقيل، أقدامه مثقلة بخطواته البطيئة، وملامحه تختزل التعب، لكنه لم يقوَ على إطفاء بريق تلك الطفولة في عينيّ الصغيرة، تحديت رغبة النوم وقررت أن أطلب منه الآيسكريم، لا لشيء سِوى أنني كنت مدللة، لا يرفض لي أبي طلبًا، ولا يكسر لي غاية؛ فخرج والدي ليشتري لي الآيسكريم، خرج لكنه لم يعد. خرج لا ليشتري لي مُجرد حلوى باردة، بل ليحمل الحب والتضحية على كاهله، ليشتري لي فرحة بلحظة، ثمنها أغلى مما قدرت طفولتي الصغيرة. قلقت كثيرًا على أبي، تُرى لِمَ تأخر؟

«ثمن الآيسكريم»

مُلحق...

أُريد الآيسكريم،

بدأت أنسام البرد تتسلل خلسة إلى قلبي الصغير!

انتظرتك يا أبي طويلًا، فَلِمَ لم تعد حتى الآن؟

ظننتك ستعود عمّا قريب، تحمل على وجهك ابتسامة حبٍ رغم التعب، وفي يديك ما أريد!

ظننتُ أن الباب سيُفتح كعادته، وسيطلّ منه وجه أبي بابتسامته المرهقة، وملامحه الحنونة، لكنه لم يعد،

لم يعد أبي حينها، فقد جاء الخبر الذي لم تفهمه سنواتي الأربع: رصاصة طائشة، أطلقها عابر بِلا وعيٍ ولا وجهة، سكير بلا عقلٍ ولا رحمة اخترقت قلب أبي الجميل.

ماتت الطفلة حينها، تشتت أرجائي وبت جثة هامدة لا تصلح للحياة، لم أكن أفهم في ذلك الوقت شيئًا، لم أكن أعيا موت أبي جيدًا، ولكني فهمت، وفي كل يومٍ من كأس الفقد شربت، ولا أزال يا أبي أدفع ثمن الآيسكريم في كل ذكرى وفي كل مناسبة، لا زلت أدفع الثمن نزعًا من الروح الثكلى، تلك الروح الميّتة،

لا تزال ابتسامتك تلوح لي كذكرى في عمق الذاكرة، لا يزال خيال عينيك يلاحقني أينما ذهبت، أجدك في كل الأرجاء، وعندما أحاول احتضانك أو الاقتراب منك، فلا أرى إلا السراب يحتضنني.

لم أعد أريد الآيسكريم،

فقط عد إلي يا أبي،

عد لتمسح دمعة سقطت في لحظة وعيٍ مؤلم،

عد لتخبرني أن الفقد ليس حقيقيًا،

وأنك ستظل حيًّا في الذاكرة، مقيمًا في الفؤاد، مهما طال الغياب.

«بلال بن رباح»

كان عبدًا أسودًا، لا يملك من الدنيا شيئًا سِوى قلبٍ أبيض يشع بالإيمان، ونفسٍ أبت أن تستسلم لقيود الجاهلية والطغيان، وفي زقاق مكة، حيث يتصارع النور مع الظلام، كان بلال بن رباح صوتًا للحق في زمن كان الباطل فيه سيد المشهد والمكان، عاش بلال عبدًا تحت رحمة سيّده أميّة بن خلف، الذي لم يعرف من الرحمة إلا اسمها، كان بلال يعمل تحت شمسٍ حارقة، جسده منهك، لكن روحه ظلّت شامخة، كان يسمع همساتٍ عن دينٍ جديد، دينٍ لا يفرّق بين حرٍ وعبد، أبيضٍ وأسود، قلبه كان يبحث عن هذا النور، حتى وجد طريقه إلى محمد صلى الله عليه وسلم،

حين نطق بلال بشهادة التوحيد لأول مرة، اهتزت جدران الظلم من حوله، لم يكن ذلك الصوت مجرد كلمات، بل كان ثورةً صامتة على عبودية الإنسان للإنسان، لكن الحرية لم تأتِ بلا ثمن، قُيّد بالسلاسل، وأُلقي في صحراء مكة تحت الشمس المحرقة، بينما توضع الحجارة الثقيلة على صدره، كان صراخ أميّة وأتباعه يطالبه بالتراجع، مُرددين له أُكفر! لكنه كان يردّ بكلمة واحدة: "أحد، أحد."

لم تكن هذه الكلمة مجرد شعار، بل كانت حياةً تُبعث في كل من سمعها التوحيد والعقيدة الصحيحة، كان بلال يقاوم بأبسط الأسلحة: الإيمان، وفي لحظةٍ، أدرك أعداؤه أن هذا العبد الضعيف يمتلك قوة لا يمكن أن تُكسر، اشتراه أبو بكر الصديق وحرره، ولم يكن ذلك تحريرًا من القيود فقط، بل ولادةً جديدة لرجلٍ سيُصبح رمزًا للحرية والكرامة،

بعد أن أصبح بلال حرًا، ازداد إشراقًا، لم يعد عبدًا لأحد، بل صار خادمًا لدينٍ عظيم، كان أول مؤذنٍ في الإسلام، ورفع صوته بالآذان من فوق الكعبة يوم الفتح، معلنًا انتصار النور على الظلام، والإيمان على الكفر،

لم يكن بلال مجرد عبدٍ تحرر، بل كان قصيدة حية عن قدرة الإنسان على كسر قيود الأرض إذا كان قلبه متعلقاً بالسماء، في كل "الله أكبر" كان يقولها، كان صوت بلال يحمل رسالة خالدة: أن الحرية تبدأ من القلب، والإيمان هو جناحها الذي يطير بها إلى الأفق.

«غربة بين الأرواح والديار»

لم يكن بالقلب ثُقلًا كهذا من قبل، كل خطوة نحو الحدود كانت تحملني نحو أحلامًا طويلة، وتلك اللهفة التي زرعها الغياب، غياب دام لسنواتٍ طويلة، وأخيرًا ستلتئم جروحي برؤية أحبتي، أبي وأمي وزوجتي وابنتي، جميعهم على موعد معي بعد كل تلك الأيام التي تحولت إلى ليالٍ حالكة دونهم، أختلس النظر إلى رسائلهم، أسمع ضحكات ابنتي وهي تتوعدني بمفاجأة، وكلمات أمي التي تقطر حبًا، أبي بنصائحه التي لا تفارقني حتى وأنا في أبعد بقاع الغربة، وزوجتي... يا لها من صابرة! كيف تحملت عناء الأيام دون أن تشكو؟ وصلت إلى الحدود أخيرًا، لكن بدلًا من أن تتسارع دقات قلبي بالشوق، كانت تنتظرني صدمة بحجم السماء، الشاحنة... لم أدرك الأمر فورًا، كل ما سمعته كان هتافًا بلا ملامح، مشاهد مشوشة... حادث سير... شاحنة اصطدمت بهم... لا أذكر كيف تلقيت الكلمات، وكأنها سكاكين تمزقني ببطء، كنت واقفًا، لكني شعرت أن الأرض سُحبت من تحتي،

أبي... أمي... ابنتي الصغيرة، ذات الثماني سنوات التي وعدتني أنها ستأتي إليّ بضحكتها الجميلة، كان ينتظرني حضنها، وضحكتها التي ترن في أذني حتى الآن، لكنها الآن... ذهبت. كُلهم ذهبوا، لم يبق منهم سوى شبح الكلمات التي أتمسك بها، تلك الرسائل الأخيرة التي لن أراها تكتمل،

زوجتي نجت، ولكن بأي حال؟ انكسرت روحها قبل يدها، نظرتها لي كانت باردة، خاوية، عيناها لا تحملان أي حديث... استعجمت، وكأن الصدمة سلبتها كل شيء

«غربة بين الأرواح والديار»

مُلحق...

انفجرت بالبكاء، لكنها لم تصدر صوتًا، كانت دموعها صامتة كأنها تجسد العجز بكل تفاصيله، أمسكتُ يدها بقوة وكأنني أحاول أن أعيد لها شيئًا من الحياة، "لا تتركيني أنتِ أيضًا... لا تتركيني." كنت أناشدها بالبقاء، أنا الذي لم يبقَ لدي أحدٌ في هذه الأرض سواها.

ليالٍ طويلة مرت بعد الحادث، لم أعد أنا الشخص الذي كنته، ولم تعد حياتنا هي الحياة التي حلمنا بها، أعود كل ليلة إلى صندوق صغير أضع فيه صورهم، أستمع إلى رسائلهم الصوتية القديمة، أسمع صوت أبي ينصحني: "كن قويًا مهما اشتدت عليك الأيام." وصوت أمي يدعو لي بالسعادة والتوفيق، وصوت ابنتي وهي تغني أغنيتها المفضلة: "بابا، متى ستعود؟"

لكن، هل أعود أنا حقًا؟ أو هل يمكنني الاستمرار؟

كل يوم أستيقظ وأحاول أن أجد سببًا للمضي قدمًا، زوجتي هي كل ما تبقى لي، لكنها أصبحت كجسد بلا روح، كنت أحاول أن أكون لها السند، أن أستعيدها من بحر الأحزان الذي أغرقها، لكنني بالكاد كنت أستطيع النجاة بنفسي،

وفي كل صلاة، أرفع يدي إلى السماء وأقول: "يا رب، امنحني القوة لأتحمل، اجمعني بأحبتي في دار لا فراق فيها."

فالحياة في الغربة لم تعد غربة مكان فقط، بل غربة روح، غربة قلب فقد كل من يملأه، لكنني أعيش على أمل، أمل أن تكون هذه الدنيا دار عبورًا فقط، وأن ما بعده أجمل، حيث لا فراق، ولا ألم، ولا دموع.

«غربة بين الأرواح والديار»

مُلحق...

لا أزال أسمع أصواتهم...

"لا تتركني يا أبي، اشتقت لنصحك، اشتقت لأحاديثك الطويلة، لتلك الليالي التي كانت تصحح لي فيها أخطائي دون مللٍ أو كلل، لم أكن أعلم أن تلك النصائح ستكون آخر ما أسمع منك."

"يا أمي، أين أنتِ؟ لا تتركيني، أنا الآن في غربةٍ لا تعرف طعماً للحياة، اشتقت لحنانك، ليديكِ الحنونتين اللتين كانتا تحيطانني دائمًا، لكلماتكِ التي كانت تمسح عني عناء الأيام."

ابنتي الصغيرة، كانت مرآة النقاء... كانت حياتي الجديدة، فرحي الذي انتظرته...

كل هذه الأصوات تلاحقني في تلك اللحظات، أسأل نفسي كيف للإنسان أن يتحمل هذا الفقد؟

كيف يمكن لقلب أن يستوعب فقدان كل من يحب دفعة واحدة؟

بقيتُ واقفًا أمام باب المستشفى، في انتظار أن يسمحوا لي بالدخول لرؤية زوجتي، كنت كأنني بين الحلم واليقظة، لا أدري أأنا في كابوس لا ينتهي أم أن ما أعيشه هو الواقع بعينه، الساعات كانت تمر كأنها سنوات، والخطوات التي قطعتها نحو غرفتها كانت أثقل من أي مسير خضته في حياتي،

دخلت الغرفة، وإذا بها ملقاة على السرير، عينان فارغتان تحدقان في السقف، وجسد منهك بالكاد يتنفس، حاولت أن أناديها، لكن صوتي خنقته دموعي، كيف لي أن أخبرها بما لا طاقة لي على احتماله؟ كيف أواجهها بالحقيقة ونحن كلانا غارقون في هذا المستنقع من الفقد؟

توجهت نحوها ببطء، جلست بجانبها، وأمسكت يدها المكسورة بحذر. "أنا هنا، يا رفيقة عمري. أنا هنا." كانت الكلمات تخرج مني متقطعة، وكأنها لا تصدق أنها قادرة على الوصول إليها،

نظرت إليّ ببطء، عيناها مليئتان بالدموع، همست بصوت ضعيف: "أين... أين ابنتنا؟"

لم أستطع الرد، شعرت وكأن صدري انفجر، وأن قلبي لن يعود لينبض أبدًا، كنت أريد أن أخبرها أنهم بخير، أنهم في انتظارها، لكن الحقيقة كانت أكبر من أن أخفيها. "لقد رحلوا..."

«لُغة العيون»

أوقعهما الحُب في شراكه فوقعا بشدة، كانا لطيفان جدًا إلا أنَّ الأيام عاملتهما بقسوة؛ لم يكونا يفكران في شيء سوى حبهما حتى أجبرتهما الظروف على التفكير في الفراق،

أمرٌ لم يكن بالهيّن إلا أنهما احتكما للمثل القائل: "آخر العلاج الكَيّ"، رغم الشوق الذي يعتصر قلبيهما لبعضهما، إلا أنّ سيف القدر يقطع كل رأس وقف في طريقه، وبينما كانا ينظران إلى بعضهما في لحظات وداع حاسمة، تحدثت عيناهما بلغة خاصة تختزل آلاف الكلمات في ومقة طرف، لتكشف عن رغبتهما في البقاء معًا، وتروي قصة من المشاعر غير المعلنة، حدّق ذلك الرجل بعينيه البُنيَتين الحالمتين في فضاء عينيها العسليتين الآسرتين باحثًا عن بصيص أمل، كان يريا انعكاس أشواقهما في عينيهما، ويسمعا صدى نبضات حبهما حين ترف جفنيهما، كما لو كانتا مرآتين تعكس إحداهما ملامح الأخرى، فارتسمت عليهما صورة توضح شدة ارتباطهما بوضوح، وهمستا بأسرار لم تجرؤ شفاههما على النطق بها في تلك اللحظة.

"وإذا العيون تحدثت بلغاتها
قالت مقالًا لم يقله بليغُ"

«العابرون»

في بلدةٍ صغيرةٍ محاطةٍ بالجبال الشاهقة، عاش رجلٌ يدعى "سليم"، عُرف بين أهلها بحكمته وبساطته، وبأنّه لم يُعرَف يومًا بالثراء، إلا أن كلماته دائمًا ما كانت تضيء الطرقات المظلمة كشمعةٍ وديعة وسط الليل البهيم،

كانت هذه البلدة تُعاني من فقرٍ وضيق في الرزق، وكان أهلها ينكبّون على أعمالهم طوال اليوم، عيونهم مشغولة بالأرض، وقلوبهم مُثقلة بآمالٍ معلقةٍ بين حلمٍ بعيد ورغيف خبز، لكن "سليم" لم يكن كذلك، بل كان دائمًا ما يقضي وقته متأملًا السماء، يُحدث الأشجار ويبتسم للأطفال، وكأنّ في قلبه كنزًا مخفيًّا لا تُدرِكه الأعين،

وذات يوم، في ساعةٍ مُبكرة، ظهر في البلدة رجلٌ غريب، ملابسه مزركشة وقبعته غريبة، يجول بين البيوت كطيفٍ بلا ملامح، همس في أذن كل من رآه: "أنا تاجرٌ، جئت أشتري، وأبيع، عندي ما يسدُّ احتياجاتكم، وفي جعبتي ما تبحثون عنه جميعًا... لكن ليس مجانًا، بل بمقابل.

أخبروني، ما أثمن ما تملكون؟"

حدّق أهل البلدة في بعضهم البعض، فما الذي يملكونه أصلًا ليرضى به هذا التاجر المهيب؟

«العابرون»

مُلحق...

إن كان يتحدث عن المال، فهم لا يملكون إلا القليل، وإن أراد الكنوز، فما لديهم سوى أحلامهم الهشة. لكنّ أحدهم أشار إلى "سليم"، وقال بصوتٍ خافت: "هذا الرجل، لديه شيءٌ ثمين. هو يعرف كيف يجعل من الحياة واحةً، رغم الجدب المحيط بنا."

عندما اقترب التاجر من "سليم"، نظر إليه نظرةً عميقةً وقال: "ما أثمن شيءٍ لديك، يا سليم؟"

ابتسم "سليم" تلك الابتسامة الهادئة التي لطالما زينت وجهه، وأجاب: "أثمن ما أملك؟ إنها الراحة التي تجيء من معرفتي بأنني لم أتخلَّ عن روحي، ولم أفرط بقيمتي مهما اشتدت الحاجة."

حدّق التاجر في عينيه قليلًا، ثم سحب من جيبه مرآة صغيرة ذات إطار ذهبي، وعرضها على سليم: "خذ هذه المرآة، إنها سحرية، كل من ينظر فيها، يرى أثمن ما لديه، لا أُريد منك مالًا ولا كنزًا، أريد فقط أن ترى."

تناول "سليم" المرآة ونظر، للحظات، لم يرَ شيئًا، ثم، ببطء، بدأت تظهر صورةٌ ضبابية، حتى وضحت أكثر فأكثر: رأى وجهه كما هو، لكن في عينيه شيء لم يكن قد لاحظه من قبل—بريقٌ خفي، يشعُّ سلامًا وصبرًا، كان هذا البريق يتوهج مع كلّ ابتسامةٍ يرسمها، ومع كلّ كلمةٍ صادقةٍ ينطقها، بريقٌ لا يزول حتى لو تبدّلت الأحوال، أعاد سليم المرآة للتاجر، وقال بابتسامةٍ أوسع: "أثمن ما لدي ليس ملكي وحدي، بل هو نورٌ يسري في كل قلبٍ إذا شاء. هو تلك القدرة على الإبقاء على الإنسانية، حتى حينما تضيق الدروب وتنطفئ النجوم

«العابرون»
مُلحق...

غادر التاجر البلدة في اليوم التالي، تاركًا وراءه المرآة في الساحة الكبيرة. أسرع أهل البلدة لرؤيتها، كلّ واحدٍ منهم يحاول أن يكتشف أثمن ما يملك، فتفاجأوا! في البداية، لم يرَ أيٌّ منهم إلا الفراغ، ثم شيئًا فشيئًا بدأت الصور تتغير: رأى الفلاح تعب يديه وصبره المتجلي في الحقول، ورأت الأم فيض حنانها المشتعل كشمعة لا تنطفئ، ورأى الحداد دقّات قلبه المتناغمة مع دقّات المطرقة... كلٌّ منهم رأى شيئًا خفيًا، كان يبحث عنه طيلة حياته،

لكن المفارقة أن لا أحد رأى كنزًا أو ذهبًا أو مجدًا، بل رأوا فقط أنفسه في أعمق لحظات صدقهم، في أنبل ما في أرواحهم، وكل من ابتعد عن المرآة، عاد ليعيش حياته بحبٍّ أكبر، فقد أدرك أنّ أثمن ما يملكه ليس ما يجمعه من الخارج، بل هو ما يسكن داخله،

وهكذا، أصبحت البلدة أكثر دفئًا، وأكثر هدوءًا، لم يزد مالها، ولم تُبنى فيها قصور، لكنّ النور الذي اكتشفوه في أنفسهم جعلهم ينظرون إلى الحياة بشكلٍ مختلف، وأما "سليم"، فقد عاد يتجول بينهم كما كان، ابتسامته تنعكس في وجوههم كمرآة سحرية أخرى، مرآة لا تكشف الأثمان، بل تزرع في النفوس إيمانًا بأنّ الحقيقة دائمًا أعمق من ظواهر الأشياء،

لقد عبر التاجر كما يعبر العابرون، وترك أثرًا كما يترك كل حلمٍ رحل، ليتعلموا أنّ ما نسعى وراءه طوال حياتنا قد يكون أمام أعيننا منذ البداية، لكنه لا ينكشف إلا إذا تجرأنا على رؤية أنفسنا كما نحن، بعيدًا عن قناع الحاجة والطمع،

إنّ أثمن ما نملكه، ليس سِوى أنفسنا، حينما تكون في أبهى صورها صادقة، نقيّة، وممتلئة بالسكينة.

«عبءُ وطنٍ على أكتاف الصمود»

هُناك عند منعطف الألم، يقف التاريخ متجسدًا في امرأةٍ عجوز، تمشي بتؤدةٍ كأنها تحمل كل ما بقي من وطنٍ يتيم، ظهرها المنحني ليس إلا صفحةً مفتوحةً من دفاتر الشقاء، بينما تراكمت فوق أكتافها مدينةٌ بأكملها، ببيوتها وطرقاتها وأبوابها الموصدة، كأنما تختزل في انحناءتها كلّ الأحلام التي انهارت تحت وطأة الغياب، أقدامها المرتجفة تلامس الأرض بحذرٍ، وكأنها تخشى أن توقظ الأحجار الحزينة، تلك التي شهدت رحيل الأحبة وصمت المكان، تمضي بخطواتٍ بطيئة، لكنها راسخة كجذورٍ تغوص في أعماق التربة، تحنو على كل حكايةٍ عالقةٍ بين ثنايا ذاكرتها، وترسم بنبضها الخافت سيرةَ صمودٍ لم يعبأ بما تكسر من جسدها، ليس هذا مجرد رسمٍ على جدار، بل قصيدة صامتة، تنبض من خلال تجاعيد امرأةٍ لم ينصفها الزمان، لكنها أبت إلا أن تواصل السير. فكلُّ نافذةٍ محمولة على كاهلها تروي حكايةً مكتومة، وكلّ طيفٍ متماوج بالألوان فوق جسدها يختزل ماضيًا لم يغادر، تحمل المدينة كأنها طفلٌ ثقيل الوزن، أو أمانة ترفض التفريط بها، لأنها تدرك أن الأوطان، وإن أثقلتها الجراح، لا تنهض إلا على أكتاف مَن يرفضون الانحناء لغير الأرض، ترتجف العصا بين يديها، لكنها تستند إليها بثبات من أدرك أن الانكسار ليس نهاية الطريق، تحمل أثقال الأمس واليوم والغد، ترفع مدينتها حتى في انحناءها، كأنها تحملها إلى المستقبل، كأنها تهمس في أذن القدر: "لن تسقط هذه الجدران طالما بقي فيّ ما يستطيع السير".

«عبءُ وطنٍ على أكتاف الصمود» مُلحق...

امرأةٌ وحيدةٌ، ومع ذلك تشعر أن هناك جيشاً من الأرواح يسير معها، أرواح من عبروا هذه الشوارع، من تركوا في نوافذ المدينة أحلامًا لا تزال عالقةً بين الحطام، تحكي قصتها بلا كلمات، تكتبها بخطاها، وتنحتها في كلّ نفسٍ تلتقطه رغم الثقل، إنها قصةُ وطنٍ بأكمله، محمولةٌ على أكتافٍ تنحني لكنها لا تنكسر،

وعلى هذا الجدار، تبقى اللوحة شاهدةً: هناك من يحمل أوجاع مدينته وحده، يمشي رغم الألم، لأن الرحلة لم تنتهِ بعد.

«عرائس الطفولة المفقودة»

ماذا تفعل الطفولة حين تُختطف من عالم البراءة إلى ظلمة الواقع القاسي؟

دُمى تُرمى على الأرض، ثوب أبيض يثقل كتفَيها الصغيرين، ويد تجذبها إلى مستقبل لا تفهمه، لا تريده، ولا يمكنها الهروب منه،

تبكي الطفلة، ليس لأنها ضعيفة، بل لأنها لم تُمنح حق الاختيار، كيف لقلب صغير أن يتحمل ثِقل حياة لم تبدأ بعد؟

أي حُلم ذاك الذي أُجبر على الهروب، حين كانت العرائس هي عالمها، وحين كان ضحكها يلّف المكان؟ كيف يختلط البكاء باليأس في وجهٍ لم يعرف بعد سوى براءة الطفولة؟

في عالم أُغمضت فيه الأعين عن معاناتها، من يُنصت لصراخها؟ ومن يحمل عنها عبء الطفولة الضائعة؟

«عصا السنوار»

بعد أن اشتدّ الحصار حول بيت يحيى السنوار، كان يعلم أن النهاية باتت قريبة، وأن المصير أصبح حتمي، وقف في منتصف الغرفة، يحدق في جدران بيته المتواضع، يسترجع في ذهنه كل لحظة عاشها في النضال، كل تضحية قدمها في سبيل نصرة الدين الحنيف، وتطهير الأرض من رجس الكافرين، كل روح فارقت الحياة من أجل القضية الفلسطينية، لكنه، وكعادته، لم يعرف اليأس، ولم يكن لليأس طريقٌ إلى قلبه، كان صموده أشد من الحصار الذي ضُرِب حوله، كان صموده يشبه صمود الجبال مهما اشتدت الرياح العاتية، وبينما كانت أصوات الطائرات تهدر في السماء، أحس بأن روحه تقاوم حتى آخر لحظة في الحياة، نظر إلى من حوله، فلم يجد إلا عصا أمامه، أمسك بها بشدة وكأنها سلاح في يد محارب لا ينكسر مهما سالت الدماء وتبعثرت الأشلاء، يبقى الجهاد أعظم غاية، كان يعرف في أعماقه أن المعركة قد انتهت في الميدان، لكن المعركة في قلبه لا تزال مشتعلة النيران، وبخطوات واثقة، رفع العصا نحو السماء، وكأنما يحاول أن يسقطها بتلك القوة التي لم يعرف أحدٌ مصدرها، لم يكن يحيى يقاتل الطائرة فقط، بل كان يقاتل فكرة الاستسلام التي لم تعرف طريقًا إلى قلبه أبدًا، كانت العصا في يده رمزًا لإرادته التي لم تنكسر، ولروح المقاومة التي تسري في عروقه،

«عصا السنوار»
مُلحق...

ومع اقتراب الطائرة من البيت، بدا وكأن الزمن يتباطأ، وكل شيء حوله يغرق في صمتٍ غريب، كان يعلم أن النهاية وشيكة، لكن كان لديه يقين بأن روحه لن تغادر العالم بلا أثر، كان يقف هناك، يواجه آلة الحرب الباردة بقلبه المشتعل، بعينين تحملان آخر شعلة من الأمل، وفي لحظة من اللحظات، دوى صوت انفجار هائل، وأصبحت السماء تعج بالدخان، سقط البيت من حوله، وتحولت العصا إلى رماد، لكن الروح التي حملت تلك العصا ظلت حيّة في ذاكرة كل من عرفه، مات يحيى السنوار جسدًا، لكنه بقي رمزًا خالدًا لإرادة الإنسان التي لا تُقهر، لم يكن سقوط الطائرة هو المهم، بل كان ذلك المشهد الأخير هو انتصاره الحقيقي، حين قاوم حتى آخر نفس، بسلاح أبسط من أن يُهزم، وأعظم من أن يُنسى.

«رحلة رُبا»

في أحد الأيام، كانت هناك فتاة صغيرة تدعى رُبا تعيش في قرية جميلة محاطة بالجبال الشاهقة، كانت رُبا تحب التأمل في السماء، حيث كانت ترى الغيوم تتحرك ببطء وتغير أشكالها، كانت ترى في الغيوم عوالم خفية وأحلام تنتظر أن تتحقق، كانت تقول لنفسها: "لو استطعت أن أطير مثل الطيور، لسافرت إلى تلك العوالم ورأيت أسرارها."

وذات يوم، وبينما كانت تجلس تحت شجرة قديمة قرب النهر، مر بها طائر صغير جريح، كان الطائر يحاول الطيران، لكن جناحه كان يؤلمه، حملته رُبا برفق وقالت له: "لا تقلق، سأعتني بك حتى تعود قويًا" أخذت الطائر إلى منزلها، وبدأت تعتني به كل يوم، تقدم له الطعام والماء، وتحاول تخفيف ألمه،

مرت الأيام، وشعرت رُبا بشيء غريب، كانت وهي تهتم بالطائر، تحس أن قلبها يزداد دفئًا ونورها الداخلي يكبر، لم تكن تدرك أن الرعاية التي تقدمها للطائر لم تكن تشفيه فقط، بل كانت تشفي قلبها أيضًا،

وبعد أسابيع، بدأ الطائر يتحسن، وذات صباح مشرق، وقف أمام رُبا وهو يحرك جناحيه بقوة، كانت تلك اللحظة التي ينتظرها الطائر منذ زمن، نظرت إليه رُبا وقالت: "هل أنت مستعد للطيران؟" هز الطائر رأسه وبدأ يرتفع في الهواء ببطء، ثم طار عاليًا، متجهًا نحو السماء الزرقاء الواسعة،

نظرت رُبا إليه وهو يختفي بين الغيوم، وشعرت بشيء جديد يملأ قلبها، أدركت في تلك اللحظة أن الحلم بالطيران لم يكن يعني الوصول إلى السماء فقط، بل كان يعني أن نجد القوة في قلوبنا لنساعد الآخرين ونرتقي بأرواحنا،

ومنذ ذلك اليوم، لم تعد رُبا تفكر في الطيران بنفسها فقط، بل صارت تؤمن أن بإمكانها أن تكون سببًا في رفع من حولها، تمامًا كما رفعت ذلك الطائر الصغير.

"لذا ازرع الحُب أينما حلّت خُطاك، وقدم المعروف للجميع؛ ولا تنسى أن إبتسامتك في وجه أخيك صدقة."

«همس القمر»

تحت أنوار القمر المتقلبة بين اكتمال وانحسار، تتسرب ملامحها كقصيدة غامضة تخطها النجوم على صفحة الليل، تحمل زهرة بين أناملها وكأنها سر الكون الذي يخفي كل الإجابات، تتنفس عبيرها كما لو أنها تسترجع ذكرى نسيتها الأرواح، عيناها المغمضتان ليستا هروبًا، بل انغماسًا في عوالم لا تراها سوى قلوب الذين يبحثون عن معنى، وشعرها المتناثر كأغصان شجرة تسامر الرياح، يحكي حكايات لا تسمعها الآذان، بل تعيشها الأرواح الحائرة، وأمامها يقف الزمن في هذا العُمر، ويشهد على دورة القمر، تلك المراحل التي تحمل انعكاسًا لصراعها الداخلي: انكسار يعقبه رجاء، وظلمة تعانقها بصيص أمل، هي تلك اللوحة التي تعبر عن جمال الغموض، وعمق الوجود، وقوة الصمت الذي يروي أكثر مما قد تُفصح عنه الكلمات.

المسمار والمطرقة: « حكاية الثبات »

وسط صخب الورشة، كانت المطرقة تنطلق بكل قوتها نحو الهدف، تضرب المسمار المثبّت في اللوح الخشبي بعزم لا يلين، كان المسمار متشبثًا، يئن بصمت، لكنه يقاوم، لم يكن مجرد قطعة حديدية، بل روحًا نابضة، تعيش صراعًا مع المطرقة التي حاولت بكل قسوتها اقتلاعه، ذلك المسمار لم يكن وحيدًا بل كان متصلًا بمسامير أخرى، تشكّل أذرعًا وأرجلًا، كل مسمار منها كان يدًا تمتدّ لمساندته، أو قدمًا تساعده على الثبات، كان يعلم أنه لو تخلّى أحدهم عن مكانه، لانهار الكيان بأكمله، ومع كل ضربة، كان اللوح الخشبي يئن بثقب جديد، والمسمار ينحني قليلًا، لكنّه لا ينكسر، كان يرى في نفسه الإنسان الذي يتمسك بمبادئه وسط فتن الزمن، كانت المطرقة تمثل كل محاولات الزعزعة، الضغوط التي تتراكم لإجباره على التخلي عن مكانه، عن دوره، عن قيمه، لكنه ظل ثابتًا ثبوت الجبال، يُعيد تشكيل نفسه مع كل ضربة، يُثبت أنه ليس مجرد معدن جامد، بل روح تحيا بالعزم والإصرار.

كأن المسمار يُنادي:

"أيها الزمن، اضرب كما تشاء!" "لكنني لن أرحل، لن أترك مكاني، إن كان رأسي قد انحنى، فإن جذوري هنا، متصلة بغيري، متشابكة بروحي معهم."

المسمار والمطرقة: « حكاية الثبات»

مُلحق...

وفي النهاية، أدركت المطرقة أنها مهما حاولت، فإن ثبات المسمار أقوى من حدتها وقوتها، أدركت أن ضرباتها كانت مُجرد صوت في عالم يمجّد الصمود.

مغزى القصة

تعكس هذه القصة معاني الوحدة والثبات والصراع، الوحدة ليست غياب الآخرين، بل وجود روابط تتشابك لتدعمنا، أما الصمود، فهو قوة تتجلّى فينا عندما نُختبر تحت الضغوط، لكل منا دوره، ولكل ضربة نتلقاها هدف، إما أن تُكسرنا أو تُعيد تشكيلنا بشكل أقوى.

«ما خلف المجهول»

كان يومًا عاديًا في حياة الدكتورة زهراء، وهي تعمل بجد في المستشفى، تنقذ الأرواح وتُخفف الآلام، كانت تلك الليلة مرهقة بشكل خاص، حيث امتلأت غرف الطوارئ بالمرضى، لكنها شعرت بوجودٍ غريبٍ يحوم حولها، كأنّ هناك عيونًا خفية تراقب كل خطوة تخطوها، وفي لحظة من الاستراحة، قررت زهراء أن تزور جناحًا مهجورًا في الطابق السفلي، مكان كانت الشائعات تدور حوله لسنوات؛ حيث يقال إنَّ أشباح المرضى الذين فارقوا الحياة بسبب خطأ طبي تطوف في أرجائه، دفعتها رغبتها في التحقيق والشجاعة التي لم تخلُ من الفضول إلى النزول إلى ذلك الجناح،

عندما خطت أولى خطواتها داخل الجناح المظلم، شعرت ببرودةٍ تخترق عظامها، الإضاءة كانت خافتة، والأصوات التي كانت تسمعها من الأجهزة الطبية تبدو كأنها أنفاس من عالم آخر، وبينما كانت تقترب من إحدى الغرف، رأت ظلًّا أسودًا يمر سريعًا، كأنه انعكاس لنفسها... لكنه لم يكن كذلك، نصفه كان مألوفًا، كأنه وجهها...

«ما خلف المجهول»

مُلحق...

لكن الجانب الآخر كان مظلمًا، هزيلًا، كأنما شُرِبَت روحه بالكامل، اقتربت ببطء من المرآة التي تعكس هذا الكيان الغريب، وها هي الدكتورة زهراء تواجه نسخة أخرى منها، نسخة مظلمة تحاول الحديث بصمت، وبينما كانت تقترب، بدأ الكيان بالتكلم دون صوت: "كل الذين أنقذتيهم... لا زالوا عالقين هنا، بين الحياة والموت... أنت السبب"

أصابها الذعر عندما رأت الجثة التي كانت على السرير في الجناح المظلم، كان مريضًا توفي منذ سنوات تحت رعايتها، أصابتها الهلاوس، وبدأت تشعر بثقل الذنب يحيط بها، الأضواء بدأت تتلاشى تدريجيًا، والظل كان يقترب منها ليبتلعها، لكنها لم تستطع الحركة، كانت حبيسة بين الحقيقة والوهم، بين العالمين، وفي لحظة، تلاشى كل شيء، ووجدت نفسها في المستشفى مجددًا، الطابق السفلي اختفى كما لو لم يكن موجودًا أبدًا، لكن زهراء لن تنسى أبدًا ما رأته، كانت تعلم أن شيئًا ما خلف المجهول قد اقترب، وما حدث لم يكن سوى البداية، الشبح الذي سكن المرآة لم يتركها أبدًا، بل استمر في مراقبتها، بانتظار اللحظة التي تكون فيها مستعدة لتعرف الحقيقة الكاملة.

«إليكَ أيها العابر»

في أحد الأيام، بينما كنت أنا وصديقتي نتجهز لحفل خطوبة إحدى زميلاتنا، وصلنا إلى القاعة حيث تجمعت النساء في غرفة الملابس ليتجهزن ثم ينتقلن إلى قاعة الاحتفال، فجأة!
لفتت نظري امرأة، أو ربما رجل، لم أستطع التمييز، لكن كوننا في قاعة مخصصة للنساء جعلني أعتقد أنها امرأة، كانت نحيلة الجسد، ووجهها مليء بالتجاعيد التي تروي قصة عمرها الطويل، ارتدت بنطالًا رجاليًا وبلوزة لا تفرق بين الجنسين، شعرها خفيف وقصير وأصفر، وقد ظهر عليه علامات الصلع، نظراتها كانت متعبة ومثقلة بالهموم، وكانت تنظر إلي وكأنها تقول: "ليتني أكون مثلكم، ليتني أكون كالجميع." في تلك اللحظة، أدركت أن الموقف يتطلب مني التقبل والتعاطف؛ فنحن في هذا العالم وجدنا لتقبل اختلافاتنا، لنتعايش بسلام، ونتجاوز نظرات العنصرية والازدراء، إن الفضول الطبيعي للبشر قد يدفعنا للنظر، لكن الأهم هو كيفية التعامل مع هذا الفضول، وكيف نتصرف بعد إدراك الموقف،

«إليكَ أيها العابر»

مُلحق...

ليس خطأً أن تنظر لتفهم الموقف، ثم تغض نظرك وتتقبل الآخر بإنسانية وسعة صدر، الخطأ هو أن تنظر بنظرة احتقار، وتلفت أنظار الآخرين لهذا الشخص المختلف. الخطأ هو أن تهمس لشخص بجانبك: "أنظر هنا، أليس مختلفًا؟"

بعد أن أدركت الموقف، نظرت إليها وابتسمت، ثم نظرت إلى النساء الأخريات لتشعر أن نظرتي كانت مجرد محاولة للتعرف على الحاضرات لم أكن، أريد أن أترك أثرًا سيئًا في حياتها.

الخلاصة،

يختلف العبور من شخص لآخر، فبعض الناس يعبرون بسلام، والبعض يتركون فجوات لا يصلحها مرور الوقت ولا حتى تعاقب الأيام، قد يكون عبورك في حياة أحدهم حتميًا، ولكن اختر أن تعبر بسلام، لا تترك قلبًا ينزف وجعًا أو يدًا ترفع إلى السماء قهرًا وظلمًا، إن لم تستطع أن تكون نورًا لأحدهم، فلا تجعل من نفسك مصدرًا للظلام،

حاول أن تتأمل بعد كل عبور

«إليكَ أيها العابر»
مُلحق...

وتسأل نفسك:

كيف كان عبوري؟

هل عبرت بسلام؟

أم زرعت الظلم والظلام في حياة أحدهم؟

هل استفدت من ذلك العبور وكان عبوري عبور الكرام؟

أم أنني زرعت في قلب أحدهم الأوجاع والأوهام؟

هل نثرت وردًا خلفي أم عوسج؟!

كل تلك الأسئلة اسأل نفسك بها بعد كل عبور، وكن كمن ينثر الورد أينما حلّ، لا تجرح قلبًا ولا تعيب شخصًا، لا تستحقر أو تؤذي أحدًا حتى بنظرة عين قد تشعره بالنقص، حاول أن تمر مرور الكرام؛ فذلك المرور سيمنحك راحة البال ويمنحك الشعور بالاطمئنان والسلام.

«على أكتاف الذكريات»

ها أنا ذا، أستلقي على أكتاف الذكريات، أستند على ظلّك الغائب، أتلمس أطيافك التي تُمحى ببطء لكنها تأبى أن تُغادر خيالي، وفي عتمة الوحدة، يُصبح الفراغ معلمي والصمت ملاذي، أغمض عينيّ لأستشعر دفء حضورك الباهت وأتنفس تفاصيلك الغائبة، وبين جدران هذا الحنين، أفتش عنك في عيون الليل وفي همسات الرياح العاتية، أشعر بوجودك الحاضر في كل أرجائي رُغم غيابك البعيد، لكنك لا تزال تسكن حبل الوريد، تتجلى صورتك في ملامح ماضينا التي تتلاشى كالألوان وتصبح باهتة، أرسمك في مخيلتي بدقة عالية، لكن يبقى فراغك عميقًا ومؤلمًا كلوحة سوداء مُعلقة على جدران الذاكرة، ومن بين كل تلك الذكريات التي تُنهك كاهلي وتُدمي أرجائي، إلا أنني أجد الراحة والتيّه معًا عندما تستغرقني الذاكرة نحوك، أستند إلى طيفك كمن يستند إلى سحابة على أمل أن تحملني إلى عالم ينتهي فيه الفراق بيني وبينك، إلى حيث تكون الألوان أكثر إشراقًا والأحلام أكثر واقعية، ولكنني لا أزال بين الحلم واليقظة، بين الحضور والغياب، أعيش تفاصيلك وأتلمس أطيافك، على أمل أن يعود الغائب وتعود الحياة للألوان التي فقدت بريقها، فمتى تعود لي لتعود معك الحياة؟!

متى أسند كتفي على كتفك؟!

ومتى ألقاك على أعتاب بابي وتلامس رموشك أهدابي؟

متى يا حُلمي البعيد القريب؟

متى يا غائبي وحاضري؟!

«حكمة المطر»

في زاوية بعيدة من الحديقة المهجورة، جلس العجوز متكئًا على مقعد خشبي قديم، ينصت لصوت المطر الذي يتسلل بهدوء إلى روحه، كان يحمل مظلة، ولكنها لم تكن لتحميه من البلل بقدر ما كانت تحميه من غرق أعمق في أفكاره، تتساقط قطرات المطر برفق، كأنها تهمس له بحكايات عن الماضي، ذكريات عن الحب والفراق، عن الأحلام التي طواها الزمن، وعن الأصدقاء الذين ابتلعتهم الحياة، كان يبدو وكأنه جزء من المشهد، جزء من تلك اللوحة الرمادية التي تروي قصصًا صامتة لا يفهمها سوى قلبه المنهك،

تتمايل أوراق الشجر في رقصة هادئة مع الرياح العاتية، وتنسج الأغصان مع الماء سيمفونية حزينة تعكس تعابير وجه العجوز الهادئة، وفي هذا الصمت، يجد العجوز عزاءه، يجد نفسه في مأمن من ضجيج العالم، وكأن المطر يغسل عنه ثقل السنين وروحه المتهالكة، يطهر روحه من شوائب الحياة التي لم تندمل بعد، تلك اللحظات الهادئة كانت بالنسبة له ملاذًا، حيث لا يسعى إلى شيء سوى التواجد، سوى الاستماع إلى نبض الأرض والسماء، والعيش في سلام داخلي لا يعرفه إلا من تذوق مرارة الأيام وحلاوتها، هكذا يمضي الوقت ببطء، ويظل العجوز جالسًا تحت المطر، في حضرة الحكمة والهدوء، يرافقه صمت المكان وألحان الطبيعة، متأملًا في جمال الحياة رغم قسوتها، في حكمة المطر رغم برودته، وفي القوة التي يجدها الإنسان في أبسط اللحظات.

«من عُمق الألم إلى عُمق الإيمان»

في رحابِ الحياةِ اليومية، بينما ننعمُ بنِعَمِ اللهِ التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، نأكلُ بشهيةٍ ونشربُ براحة، يعيشُ بيننا مَنْ يُصارعونَ أشرسَ المعاركِ على جبهاتِ الألمِ والمرض، هُناكَ في زوايا المستشفيات، وفي بيوتٍ يَغمرُها الصمتُ القاسي، يقفُ أبطالٌ من نوعٍ آخر، يقفونَ بشجاعةٍ أمامَ وحشِ السرطانِ وأخواتهِ من الأمراضِ المُنهكة، هؤلاءِ الأبطال، يواجهونَ كلَّ يومٍ بأملٍ لا يُنضب، وبإيمانٍ يُنيرُ دروبَهم المُظلمة، يُدركونَ أنَّ كُلَّ وجعٍ هو ابتلاءٌ من اللهِ، وكُلَّ دمعةٍ هي رسالةٌ بأنَّ هُناكَ نهايةً لهذهِ الرحلةِ الشاقة، يُشعِروننا بقيمةِ كلِّ لحظةٍ نعيشُها بصحةٍ وعافية، وكم نحن مُقصّرون في شُكرِ اللهِ على هذه النِّعَم، بينما نحنُ نجلسُ حولَ موائدِ الطعام، نستمتعُ بنِعَمِ اللهِ التي أغدقَ علينا، هُناكَ مَنْ يَفتقدُ طعمَ الطعامِ ونكهةَ الحياة، يُحاربونَ بشجاعتِهم، يُرسمونَ ابتسامةً على وجوهِهم رغمَ الألم، لأنَّهم يُؤمنونَ بأنَّ اللهَ معهم في كلِّ خطوةٍ وفي كلِّ نفس، إنَّهم يَعلمونَ أنَّ اللهَ لا يُحمِّلُ نفسًا إلا وُسعَها، وأنَّ معَ العُسرِ يُسرًا؛

فلنَتذكرْ دائمًا هؤلاءِ الأبطالَ في صلواتِنا، ولنُقدِّمَ لهم من حُبِّنا ودعائِنا، ولنَشكرِ اللهَ على نِعَمِ الصحةِ والعافيةِ التي نعيشُها كلَّ يوم، ليكنْ إيمانُنا باللهِ أقوى من كل شيء، ولتكنْ قلوبُنا قريبةً من اللهِ، شاكرةً في كلِّ لحظةٍ من لحظاتِ حياتِنا.

«الجنون بين المسافات»

منذ أول لحظة لُقياه، شعر قلبه وكأنَّ الشوارع في قلبه قد امتلأت بالأضواء، وأنَّ الليل قد تفتح أمامه كالورد، وأنَّ الحياة قد خُلِقت فقط ليحيا من أجلها، كان هو، في كل لحظة، يتنفسها، يعيشها، يتذوقها، كان يشعر بقربها بكل أرجائه، كان يرى في عينيها عالمًا بأسره، وكان حبه لها أعمق من كل شيء، أوسع من كل أُفق، كانت هي البحر الذي غرق فيه، والشمس التي أضاءت له عتمته، وكانت طرقه إليها مغلقة بعواصف من الشكوك والألم.

ماذا يفعل عندما يصبح الحب شيئًا يراه كل لحظة، ويشعر به في كل خفقة من قلبه؟ ماذا يفعل عندما يصبح جنونه جزءًا من نفسه؟ كان يراها في كل مكان، في كل زاوية، في كل همسة، في كل حلم. وعندما يبتعد عنها، يغرق في صمتٍ ثقيلٍ، ينساب فيه الوقت كدخان، ويبدأ في شعورٍ غريبٍ بأنَّ العالم قد ضاق عليه، وأنَّ الأمل قد انتهى. كان يعشقها حتى الجنون، حتى الفقد، حتى الألم الذي يتولد في داخله كلما تذكر أنه قد لا يصل إليها أبدًا.

أين الطريق؟ كيف يصل إليها؟

«الجنون بين المسافات»

مُلحق...

كانت المسافات بينهما كحواجز من الجبال، وكلما اقترب، تباعدت المسافات في قلبه، وكأنَّ السماء تتناثر من حوله، وكأنَّ النجوم قد فرت من مدارها، لكنه كان يعشق هذا الجنون، يعشق تلك المسافة التي تزيد حبه عمقًا، تلك الهاوية التي كلما اقترب منها، وجد نفسه يتساقط في بئرٍ من العاطفة لا قاع له.

ظلَّ يركض خلف أملٍ مجهول، في عالمٍ مليءٍ بالظلام، لكنه كان يؤمن أنَّ الحب يستحق كل شيء، حتى الجنون، حتى البُعد، في قلبه، كانت تتراقص الكلمات وتغني الألحان، رغم أنَّ الطرق كانت تبدو مقطوعة، رغم أنَّ الأمل كان كالشفق الباهت في آخر اليوم، إلا أنَّ جنونه بها كان أكبر من أن يُوصَف بالكلمات.

«ليطمئن قلبك»

ليطمئن قلبُكَ يا صاح، وتهدأ زوابعُ القلقِ التي تعصفُ بصدرك، سأروي لكَ قصةَ ذاك الجسدِ الذي أثقلهُ المرضُ حتى أوشكَ أن يهوي.

كان عليًّا، شابًا مليئًا بالحياة، يركضُ خلف أحلامه كما يركضُ الطفلُ خلف طائرٍ ملون، لا يكفُّ عن رسمِ الطموحاتِ في سماءِ أحلامه؛ لكنَّ الحياةَ أبت إلا أن تُعلّمه درسًا لم يكن يومًا في حسبانه،
بدأت الحكايةُ حين هجم عليه مرضٌ خطير دون استئذان، قيدَ خطواته، وخنق أنفاسه، حتى غدت الأحلامُ التي كان يلهثُ خلفها كسرابٍ يراهُ ولا يدركه، جلس في سريرهِ، يحدّقُ في سقفِ غرفتهِ الذي صار أفقَه الوحيد، شعر بأن الحياةَ تخلّت عنه، بأن الألمَ يلتهمُ جسده، وبأن العافيةَ أصبحت حلمًا مستحيلًا، وفي لحظةٍ من تلك اللحظاتِ الحالكة، وبينما كان الغيمُ الأسودُ يثقلُ صدره، دخلت والدتُه تحملُ مصحفًا صغيرًا، وجلست بجانبه، وضعت يدها على صدره وقالت: "يا عليّ، ليطمئن قلبُكَ، فإن الذي خلقَ الداءَ هو نفسهُ الذي خلقَ الدواء، والذي أحيى الأرضَ بعد موتها قادرٌ أن يُحيي روحك."

«ليطمئن قلبك»

مُلحق...

في تلك اللحظة، شعر عليّ بأن كلماتَ أمهِ كسرت قيدَ اليأس الذي التفَّ حول قلبهِ. قرر ألا يستسلم، أن يتمسَّك بخيط الأملِ الذي لا يزال يلمعُ في الأفق، وإن بدا واهيًا،
مرت الأيام، وكان كل يومٍ منها حربًا يخوضها عليّ ضد ألمه، جلساتُ العلاجِ كانت تنهكه، والليلُ كان يطولُ عليه، لكنه ظلّ يردد: "إن مع العسر يسرًا، إن مع العسر يسرًا."

وذات صباحٍ أتت البُشرى، أشرقت شمسُ العافية على جسده الهزيل، أراد الله أن يجبره جبرًا يليق بصبره، وبقوة إيمانه، عاد عليّ ليركضَ خلف أحلامه، لكن هذه المرة بروحٍ أعمق، وبقلبٍ ممتنٍّ لكل لحظةِ شفاءٍ عاشها؛ لذا يا صاحبي إنها الحياة، لا تخلو من المرضِ والابتلاء، لكنها أيضًا مليئةٌ بالشفاءِ والعوض الجميل من الله؛ فكن كعليّ، تمسك بالأمل، وثق بأن الله أرحمُ بعبادهِ من أن يتركهم في العتمةِ دون أن يرسلَ لهم نورًا يهديهم في الظلام.

| ختامًا |

وفي الختام «خلف قضبان الحياة» ليست إلا مرآة لما تخبئه الأيام في طياتها من ابتلاءات وشدائد، وما تنطوي عليه القلوب من صبر وإيمان، فهي تروي حكايات أناس ذاقوا مرارة السجن، سجن الأقدار والظروف، لكنهم أبَوا إلا أن يجعلوا من القيود أجنحة تحلق بهم نحو الأمل، ومن الظلام نورًا يضيء لهم الطريق.

ستجد بين صفحات هذا الكتاب حكايات تُشبهنا جميعًا، صراعات أرواحنا وآلامنا، وانتصاراتنا الصغيرة التي تحمل في طياتها معاني عظيمة. لعلها تكون عونًا لك في رحلتك، ورفيقًا يهمس في أذنك أن بعد العسر يسرًا، وأن نور الفجر قريب مهما طال الليل.

اقرأها بقلبك قبل عينك، وتأمل في تفاصيلها، فلربما تجد بين السطور ما يُشعل في روحك جذوة الأمل من جديد، ويُعيد إلى أيامك ألوان الحياة التي خفتت.

خلف قضبان الحياة

عالمٌ أشبه بسجنٍ يَحجُب ضوء الحياة خلف قضبانٍ تتراءى شفّافةً لكنها لا تكاد تُخفي صدى الحكايا وآهات الترحال، هل يمكن للروح أن تحلّق بينما يُحيطها الأسر؟ وهل للقلوب أن تنبض بحريةٍ وسط ضجيج القيود؟

في هذا الكتاب، نُبحر في أعماق النفوس ونستعرض قصصًا يكسوها الحنين ويفتتها الحزن، قصص أولئك الذين قاوموا من خلف قضبانٍ أُجبروا على خوض معاركها، قصصٌ لا تُحكى، بل تُعاش بين السطور لتهمس للقارئ بلغة الصبر والأمل.

دار مُورفُو للنشر والتوزيع

المؤلف: ليلى أنعم